الفصل الثانى

الآثار الفكرية للفرق الإسلامية :

المبحث الأول : المفاضلة بين الصحابة.

المبحث الثانى : الحرب بين على ومعاوية.

المبحث الثالث : عقيدة المهدى المنتظر.

المبحث الرابع : مآتم الحسين " الحسينية ".

المبحث الخامس : تأثر الثقافة والأدب بالفكر الشيعى.

المبحث السادس : الإنتاج الفكرى والثقافى لأتباع الفرق الإسلامية

كان لتواجد الفرق الإسلامية بالأندلس أثر كبير فى ظهور العديد من أفكارهم فى الأوساط الأندلسية وتبنى البعض لها، كمسألة المفاضلة بين الصحابة ، والحرب بين على ومعاوية ، والمهدى المنتظر، والنزعة الشيعية فى الأدب ، والاستطاعة والجبر، ومرتكب الكبيرة ، وخلق القرآن ، وإمامة المفضول ، وغير ذلك ، وسوف يقتصر الحديث فى هذا الموضع على الأربع مسائل الأول فقط ، باعتبارها الأكثر تأثيرا فى الحركة التاريخية فى المشرق والمغرب على السواء،فضلا عن اتساقها مع موضوع الدراسة وتخصصها.

المبحث الأول : المفاضلة بين الصحابة

ترجع هذه المسألة إلى أيام النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة يفاضلون أبا بكر على عمر وعمر على عثمان (1) ثم قبيل وفاته (ص) اشتدت هذه المسألة من خلال الطائفة التى التفت حول على بن أبى طالب وطلبت منه أن يطلب الخلافة لنفسه ، ثم ازداد الأمر شدة بعد نشوب الحرب بين على ومعاوية ، والتى كانت بداية حقيقية لنشأة كل من الشيعة والخوارج ، ومن ثم تبلورت هذه المسألة وبدا القول فيها أحد المبادئ الهامة لدى هاتين الفرقتين ومن تبعهما من الفرق الأخرى ، فقد ذهبت جميع فرق الشيعة إلى أن أفضل الأمة بعد رسول الله (ص) هو على بن أبى طالب ، فى حين ذهبت الخوارج إلى أن أبا بكر هو أفضل الصحابة بعد رسول الله (ص) ثم عمر، وذهب البعض من المرجئة والمعتزلة إلى رأى الشيعة ، فى حين ذهب البعض الآخر منهما إلى رأى الخوارج(2).

كان طبعيا لأهل السنة أن يشاركوا برأي فى هذه المسألة ، فأفتى جمهورهم بتفضيل أبى بكر وعمر على من بعدهما ، فى حين ذهب البعض منهم إلى أفضلية على بن أبى طالب ، وتوقف آخرون منهم كداود بن على الظاهري فلم يحدد أشخاص ، بل قال إن أفضل الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله (ص) وأفضلهم الأولون من المهاجرين ثم الأولون من الأنصار ثم من بعدهم ، وقد كان هذا الرأي منتشرا بين بعض الأندلسيين ومنهم ابن عبدالبر النمرى صاحب ابن حزم والذى تمسك به منذ أن كان ظاهري المذهب ، وظل يعتقده حتى بعد تحوله للمذهب المالكى ، وغيره من متقدمى طلبة العلم الذين رآهم ابن حزم (3).

---

(1) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، القاهرة ، د.ت، ص42،41 .

(2) ابن حزم ، الفصل،3/32 .

(3) البغدادى ، الفرق، ص302 ; وأنظر : ابن حزم، الفصل،3/33،32 .

وبعض من قدم عليا من أهل السنة كان يعتمد على ما ورد عن الصحابى الجليل أبى الطفيل عامر بن وائلة من أنه كان يعترف بفضل أبي بكر وعمر , لكنه يقدم عليا حسب ما نقله ابن عبدالبر [1].

أما غالب فقهاء المالكية فكانوا متابعين للإمام مالك فى قوله : ما أدركتُ أحدًا ممن أقتدى به يشك في تقديم أبي بكر وعمر .

كذلك روج بعض الحنابلة الذين عرفتهم الأندلس لرأى إمامهم أحمد بن حنبل بشأن المفاضلة حيث قال : " لم يكن بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسم اختلاف أن عثمان افضل من علي ".

وأما الشافعية الذين عرفتهم الأندلس فتمسكوا بقول إمامهم الشافعى: " ما اختلفَ أحدٌ منَ الصحابةِ والتابعينَ في تفضيلِ أبي بكرٍ وعمرَ وتقديمهما على جميعِ الصحابةِ ، وإنَّما اختلفَ مَنِ اختلفَ منهم في عليٍّ وعثمانَ " [2].

وأما بشأن الأشاعرة فقد وجدنا أبا الحسن الأ شعرى يتحدث عن مسألة المفاضلة دون حسم حيث قال : " وأختلفوا في التفضيل : فقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ,ثم عمر , ثم عثمان , ثم علي،وقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول صلى الله عليه وسلم : أبو بكر , ثم عمر , ثم عثمان،وقال قائلون : نقول : أبو بكر , ثم عمر , ثم عثمان , ثم نسكت بعد ذلك،وقال قائلون : أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : علي ثم بعده أبوبكر ، وقال قائلون : لاندري أبو بكر أفضل أم علي[3].

1نقلا عن ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود – على محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2278/4.

2نقلا عن البيهقى : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، تحقيق أحمد بن إبراهيم أبو العينين ، دار الفضيلة ، ص192.

3أنظر : مقالات الإسلاميين ، 147/2.

وعلى نفس المنوال وجدنا الباقلانى الذى انتشرت كتبه وأقواله بالأندلس يذهب إلى عدم تحديد الأفضل فيقول : " أن الكلام في التفضيل مسألة اجتهاد لا يبلغ الخطأ بصاحبه فيها منزلة الفسق , وما يوجب البراءة : لأن الفضائل المروية أكثرها متقابل متعارض في الفضل , وما يذكر من السبق إلى الإسلام والجهاد وغير ذلك محتمل التأويل " (1).

وقال أيضا : " فأما القائلون بأنا نقف فيهم من غير قطع على تفضيل أحد منهم أو قطع تساويهم في الفضل , فإنهم أقرب إلى الصواب , وأقدر على الأحتجاج " (2).

ومما سبق يتضح تفاوت الآراء بين فقهاء السنة بالأندلس من المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية ، وبين الأشاعرة والمعتزلة والمرجئة بشأن مسألة المفاضلة الأمر الذى اضطر أحد أعلام الفكر الإسلامى بالأندلس وهو ابن حزم الظاهرى أن يفصل الحديث عن هذه المسألة تفصيلا إذ خصها بدراسة مستفيضة أسماها (المفاضلة بين الصحابة) ، وكان فى ذلك مندفعا تحت تأثير عدة أسباب :-

الأول: انتشار آراء كل فرقة ومذهب ، واحتدام الخلاف الفكري بين أتباع كل طائفة ، فأراد أن يحتوى هذا الخلاف خاصة وهو أول من أصل دراسة الفرق الإسلامية بالأندلس .

الثانى: مقاومة بنى حمود العلويين الذين كانوا يدعون أحقيتهم بالخلافة اعتمادا على انتسابهم لعلى وفاطمة ، فأراد ابن حزم أن يبين أن هذين اللذين ينتسبون إليهما ليسا لهما الفضل الأول ، بل هناك من هو أفضل منهما ، ومن ثم فقد فضل ابن حزم نساء النبى على فاطمة ابنته ، وفضل أبا بكر وعمر على على بن أبى طالب .

1أنظر : مناقب الأئمة الأربعة ، تحقيق سميرة فرحات ، دار المنتخب العربى ، ط1 ،1422هـ/ 2002م ، ص295.

2نفسه ، ص513.

الثالث: الخلاف الشديد بين الصحابة والتابعين أنفسهم حول أفضل الناس بعد النبى (ص) فمنهم من قال جعفر بن أبى طالب ومنهم من قال على ومنهم من قال سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر، وهناك من فضل أبى سلمة، ومنهم من قال عبدالله بن مسعود ، ومنهم من قال عمر بن الخطاب ، فأراد ابن حزم أن يخرج برأى واحد من واقع دراسته يظن أنه الصواب ، خاصة وأنه صاحب الرأى القائل الحق من الأقوال واحد ، وما دونه فكله باطل ، وقد تمثل هذا الرأى فى أن افضل الناس بعد الأنبياء نساء النبى (ص) ثم أبوبكر ثم عمر بن الخطاب ، ثم المهاجرين الأولين ولم يقطع بفضل واحد منهم ثم أهل العقبة ثم أهل بدر ثم أهل المشاهد مشهدا مشهدا حتى الحديبية [1] والواضح من رأيه أنه جمع فيه بين الاجتهاد ورأى إمام مذهبه داود ، فقد ذهب إلى رأى لم يذهب إليه أحد قبله ، وهو تفضيل زوجات النبى على سائر الصحابة ، ثم توقف بعد عمر فى عدم القطع على شخص بعينه وهو قول إمام مذهبه .

لقد كان ابن حزم يظن أنه سيحسم الخلاف فى هذه المسألة برسالته السابقة ، إلا أن الأمر جاء بخلاف ما كان يتصور إذ أنها أدت إلى إذكاء نار الخلاف بينه وبين مخالفيه من المالكية وأتباع الفرق الإسلامية ، بل تعدى الأمر إلى معارضة بعض أصحابه، وبعض مثقفي الأندلس له فى ذلك . فقد لقى معارضة من الشيعة لتقديمه أبى بكر وعمر علي على ، وجعله على فى مرتبة مع غيره من الصحابة الأولين دون تمييز، واعترض عليه الأشاعرة فيما ذهب إليه من تقديم نساء النبى على جميع الصحابة ، ثم أبى بكر بعدهن ، واعترض عليه أحد أقطاب المالكية فى عصره وهو مكى بن أبى طالب لتفضيله نساء النبى على أبى بكر وعمر[2].

---

(1) أنظر: رسالة المفاضلة بين الصحابة ، نشر وتحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر العربى، بيروت 1389هـ/1969م، ص264،173-267 .

(2) رسالة المفاضلة، ص258،216،210،205،199،197 ; وأنظر : الفصل ،46/3 .

وبالرغم من هذه المعارضات المتعدده فقد رد ابن حزم عليها بحجج قوية تساند رأيه وتؤيده ، وضمن ردوده هذه رسالته فى المفاضلة ، ليقف القراء على نقده كما وقفوا على اعتراضات معارضيه ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر رده على أحد مخالفيه الذى احتج عليه بأن نساء النبى لسن أفضل من أبى بكر وعمر لقوله تعالى (وليس الذكر كالأنثى) [سورة آل عمران آية 36] فأجابه ابن حزم بأن الآية ليس فيها من الفضل شئ ، مثل قول القائل الحمرة غير الخضرة والعكس ، ولو كان الأمر كما ذهبت لكنت أنت أفضل من مريم وعائشة وفاطمة (1) .

لقد كان لهذه المعارضات السابقة أثر كبير فى الترويج لرأى ابن حزم ، ومن ثم فقد وجد من الأندلسيين من يوافقه كما وجد من يعارضه ، فضلا عن تبنى بعض الظاهرية لرأيه بعد أن كانوا قد توقفوا فى أمر المفاضلة كما كان شأن إمام مذهبهم الأول داود بن على ، بل إن أثره تعدى ذلك إلى تصنيف بعض الظاهرية وهو ابن دحية الكلبي كتابا فاضل فيه بين الصحابة المشاركين في معركة صفين أسماه "الإعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين" (2) وهذا أوضح دليل على أثر ابن حزم ونجاحه فى التمكين لوجهة نظره الكامنة فى ضرورة معرفة أفضل الصحابة ثم الذين يلونهم ليزداد المؤمن اتباعاً وإحساناً للأفضل منهم .

(1) نفس المصدر، ص216،217 .

(2) المقرى ، نفح الطيب،306/2 .

المبحث الثاني: الحرب بين على ومعاوية

هذه إحدى المسائل التى زادت من حدة الخلاف الفكرى بين الفرق الإسلامية. بل بين أهل السنة أنفسهم ، فقد ذهب جميع الشيعة وجمهور المعتزلة وبعض المرجئة إلى أن عليا كان المصيب فى هذه الحرب ، وكل من خالفه على خطأ، فى حين ذهبت الخوارج إلى أن عليا مصيب فى قتاله أهل الجمل يعنون أصحاب عائشة ، وأهل صفين يعنون أصحاب معاوية ، ومخطئ في قتاله أهل النهروان ، فى حين توقف جمهور أهل السنة فى حرب على لمعاوية ، وذهب بعضهم إلى نفس مذهب الشيعة (1).

لقد انتقلت هذه الأقوال والأفكار إلى الأندلس عن طريق المذاهب الإسلامية ، ثم عن طريق الفرق الإسلامية ، وأدت إلى إحداث اضطراب فكرى بين الأندلسيين شأنها فى ذلك شأن ما نشأ بالمشرق .

ومن أبرز من عالج هذه القضية من فقهاء الأندلس الكبار ابن حزم الظاهرى الذى أراد أن يحتوى هذا الخلاف فأفتى رغم نزعته الأمويه بأن عليا هو المصيب فى الحرب ، وأنه صاحب الحق فله أجرين أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، ومعاوية ومن معه مخطئون مأجورون أجرا واحدا وهم مؤمنين باغين (2) ويرجع بحث ابن حزم فى هذه المسألة للآتى:-

أولا : الاتهام الذى وجه لابن حزم بأنه من المعادين لعلى رضى الله عنه ، والمدافعين عن الأمويين ومعاوية.

ثانيا : طلب بعض الأندلسيين منه أن يفتيه فى هذه المسألة .

ثالثا : النصوص التى رجحت كفة على على معاوية ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (تمرق مارقة بين طائفتين من أمتي تقتلها أولى الطائفتين بالحق) والمارقة هم الخوارج ، وعلى

(1) ابن حزم ، الفصل،3/78 .

(2) نفس المصدر،3/86 .

هو الذي قاتلهم ، وقوله (ص) (تقتل عمارا الفئة الباغية) وكان مقتله على يد أبى العادية يسار بن سبيع السلمي من معسكر معاوية بن أبى سفيان (1)

وتجدر الإشارة إلى أن رأى ابن حزم هذا قد لقى معارضة من قبل طوائف لم يذكر إلى أى مذهب ينتمون ، كانوا يذهبون إلى تصويب محاربى يوم الجمل (أصحاب عائشة) ويوم صفين (أصحاب معاوية) ، وقد رد ابن حزم عليهم ردا استخدم فيه ثقافته المتعددة من فقه وجدل وتاريخ وحديث ليوضح لهم أوجه الحق فى ذلك وملخص هذا الرد أن على بعد قتل عثمان كان هو الإمام الواجب طاعته ، وأن معاوية خرج عليه ، وقدم الأخذ بثأر عثمان على بيعته لعلى فهو مخطىء فى ذلك ، ولو بايع معاوية لقوى على به على الحق وأخذ بالثأر من قتلة عثمان ، ولبايع حينئذ بلا شك كل من امتنع من الصحابة عن البيعة لعلى منعا للفرقة(2)

ومما سبق يتضح أن الفرقة التي عارضت ابن حزم كانت تتسم بميولها لمعاوية ضد على ، وأن ابن حزم بالرغم من نزعته الأموية فلم يوافقهم قولهم ، انطلاقا من النصوص التى تصوب رأى على معاوية .

ويتضح أثره بخصوص هذا الشأن على (أبى بكر بن العربي المالكي) الذى صنف كتابا فى تحقيق مواقف الصحابة بعد الرسول (ص) أسماه (العواصم من القواصم) تبنى فيه الكثير من آراء ابن حزم ، كصحة وجوب خلافة على ، وصوابه فى حربه مع معاوية وأن الحق كان معه ، واستخدامه الأسلوب الجدلي والفقهي فى الدفاع عن الصحابة ضد الخوارج والشيعة وغيرهما (3) بل إن أثره امتد إلى المغرب حيث تبنى المؤرخ الشهير ابن خلدون فى

---

(1) ابن حزم ، الفصل،3/87،86، والحديث الأول رواه مسلم فى كتاب الزكاة من صحيحه،باب ذكر الخوارج وصفاتهم، والحديث الثاني رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه، باب مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله .

(2) أنظر: الفصل،3/88،87،85،83،82 .

(3) أنظر: العواصم من القواصم، ص147-168،150-174 .

القرن الثامن الهجرى رأى ابن حزم فى الخلاف بين على ومعاوية [1] ولا شك فى تأثر الكثير من تلاميذه ومريديه بهذا الرأى ، وهكذا فقد ترك ابن حزم أثرا واضحا فى الفكر الأندلسي. خاصة وأن بعض هذه الآراء لم يطرقها أحد بالأندلس قبله ،إذ أن مذهب أهل السنة كان ينهى عن النظر فيما نشب بين الصحابة من نزاع، ومن المخطئ ومن المصيب 0

(1) أنظر: المقدمة،ص144 .

المبحث الثالث: عقيدة المهدى المنتظر

اشتق اسم المهدي من فعل هدى; أي بيّن طريق الهدى وعرّفه وأرشد إليه; ومنه اشتق اسم الهادي الذي هو من أسماء الله الحسنى ، وخلافه ضل، أي تاه وأخطأ وزاغ عن الصراط المستقيم ، ويدل المصدر هدى على الطاعة والورع وبذلك يدل اسم المفعول مهدي على الذي قد هداه الله إلى الحق[1]، وهو من الهداية. وسمي بذلك لأنه يهدي الناس هداية إرشاد إلى الحق.

أما المهدي المجمع عليه عند الشيعة الاثنا عشرية، فهم يعتقدون أنه محمد بن الحسن العسكري الذي غاب في سرداب "سامراء" وعمره خمس سنوات سنة (260هـ)، وهم ينتظرون خروجه إلى هذا اليوم، ليظهر القتل في أهل السنة فيكون قتلاً ذريعاً لا مثيل له، ويهدم البيت الحرام والمسجد النبوي، وينبش قبري أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويصلبهما ويحرقهما، وأنه يحكم بشريعة داود عليه السلام، وهذا من الأدلة على جذورهم اليهودية ، وقد أسس مذهبهم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر حب أهل البيت نفاقًا، حتى يتمكن من هدم الإسلام عن طريق تقديس الأئمة ، والغريب في الأمر انتظارهم له على باب السرداب، وهم يصيحون به أن يخرج إليهم قائلين: "اخرج يا مولانا"، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان فهذا دأبهم. ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... كلمتموه جهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

1ابن منظور، لسان العرب، مادة هدى .

أصبحت نظرية المهدي تمثل جزءًمهماً من الممارسات العملية في الفكر الشيعي المعاصر، وما دعوة ولاية الفقيه التي ينادي بها فريق من الشيعة إلا جزء من هذه الممارسة، حيث يقوم الفقيه العالم، مقام المهدي الغائب، إلى أن يؤذن له بالظهور. وبسبب الاجتهاد المفتوح عند الشيعة، فقد تعددت وجهات النظر في موضوع المهدي والمهدوية، لدرجة أن أحد الكتاب من الشيعة المعاصرين وهو أحمد الكاتب أنكر تماما ولادة محمد بن الحسن العسكري (المهدي)، وقد أصدر في ذلك كتابا بعنوان (تطور الفكر السياسي الشيعي.. من الشورى.. إلى ولاية الفقيه).. تناول فيه قضايا مثيرة للجدل في موضوع (المهدي المنتظر)([1]).

عرفت الأندلس هذا المعتقد منذ دخول الإسلام إليها ، ثم بدأت تترسخ بها على أيدي علماء من أهل السنة والشيعة على السواء ، حتى أن أحد الأمراء الأمويين وهو أحمد بن معاوية بن هشام الأموي المعروف بالقط الثائر أعلن فى عام288هـ/901م أنه المهدى المنتظر، وهذه هى المرة الأولى التى نسمع فيها بهذا المصطلح فى الأندلس ، وبعد ذلك ازدادت ترسيخا من خلال محاولات الفاطميين فى نشر الدعوة الشيعية وأصولها بالأندلس([2]).

وفى عصر الخلافة الأموية بالأندلس وجدنا محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر يطيح بهشام المؤيد بن الحكم المستنصر من الخلافة فى العام 399هـ وتسمى بالمهدى ([3]) ، وتعتبر هذه هى التسمية الأولى لخليفة سنى أموى بهذا الاسم مما يؤكد حقيقة الأثر الفكرى للفرق الإسلامية بخصوص قضية المهدى التلقب أو التسمى به.

الجدير بالذكر أن معظم فقهاء السنة من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم أقروا بعقيدة المهدى المنتظر ، ولكن فى قالب يختلف تماماً عن قالبها الشيعى ، وهذا الإقرار كان معروفا فى

1ظاهرة دعاوي المهدي المنتظر وجذورها التاريخية: جريدة الشرق الأوسط: السبت 12 رمضان 1423هـ

(2) دوزى : المسلمون فى الأندلس ، ترجمة حسن حبشى ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ، 1998 م ،12،13/2 ; وانظر : محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص101.

3ابن حزم : رسالة فى ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس ، رسائل ابن حزم ، 196/2.

المجتمع الأندلسى حتى القرن الخامس الهجرى الذى شهد ظهور شخصية مؤثرة فى الفكر الإسلامى خاصة والإنسانى عامة هو ابن حزم الظاهرى فكان منه أن رفض هذه العقيدة ، ومن ثم لم يتعرض لها فى تدوينه لأصول الدين ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أفتى بأنه لا يرجع أحد فى آخر الزمان ، ولا رجعة إلا يوم القيامة، حيث يرجع الله المؤمنين والكافرين للحساب والجزاء(1) ويرجع هذه الرفض إلى الآتى :-

أولا: أن تلك العقيدة إحدى الأصول التى بنى عليها المذهب الشيعي هى ومسألة الرجعة .

ثانيا: أن هذه العقيدة تدعو إلى عدم الاجتهاد ، والتقليد لشخص يزعمون له العصمة وهو ليس كذلك ، وهذا يتعارض مع ما كان يدعو إليه ابن حزم من فتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد والاتباع للآخرين .

ثالثا: ضعف الأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن عنده ، ولذا فقد اعتبرها من اختلاق الروافض ، وأنها وليدة تأثر باليهود والنصارى والمجوس (2).

كان ابن حزم من أوائل من شكك فى عقيدة المهدى وألصقها بالشيعة ، ولم يعتبرها من عقيدة أهل السنة. إذ لم يرد فيها نص صحيح عنده ، كما أن نصوص القرآن لم تؤيدها ، هذا فى الوقت الذى كان فيه معظم الأندلسيين على اقتناع تام بتلك العقيدة اعتمادا على أن

---

(1) أنظر: المحلى،43/1 ، وعن الأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن أنظرابن كثير، البداية والنهاية،30/8-39.

(2) أنظر: الفصل،165،372/1 ، هناك من المحدثين والفقهاء من صحح أحاديث المهدى واعتبرها متواترة ومنهم الحافظ أبوالحسين الآيرى السجزى ، والقرطبى، والحافظ ابن حجر، والحافظ لسخاوى، ولشوكاني، الذي صنف كتابا اسماه "التوضيح لبيان تواتر حديث المنتظر والدجال والمسيح "وصنف تلميذه السيد صديق خان القنوجى ملك بهبال بالهند كتابه"الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة" يوضح فيه تواتره أيضا . أنظر : عبدالله الصديق الغمارى:الحاوي فى فتاوى الغمارى، دارالأنصار، القاهرة ، ط1، 1402هـ/1982م، ص20،21.

معظم علماء أهل السنة ذهبوا إلى ذلك ، ومن ثم فلا شك أنه لقى معارضة شديدة منهم ، خاصة الشيعة الذين كانوا يمثلون طائفة كبيرة ، والمالكية الأندلسيين الذين درجوا على التقليد .

وأياً ما كان الأمر فقد مكن المنصور الموحدى لرأى ابن حزم عندما رفض عصمة المهدى ابن تومرت الذى ادعى أنه المهدى المنتظر، وشهد بحجر الكعبة أنه لا يقول بعصمته، وطبق ذلك عمليا بدولته. إذ أنه كان يعترض على من يصف المهدى بالإمامة والعصمة بحضرته ويغضب منه(1) وفى عهد المأمون إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن تمكنت عملية معارضة المهدى حيث أمر بمحو اسمه من السكة والخطبة ، وأعلن أن وصفه بالإمام المعصوم نفاق وبدعة وأمر باطل ، حيث أنه لا مهدى إلا عيسى عليه السلام ، وكان عمله هذا هو رغبة أبيه المنصور الذى كان من أشد حكام الدولة تأثرا بابن حزم ، ولم يترتب على ما فعله المأمون أية معارضة من قبل الرعية ، بل أشاد الشعراء بتصرفه وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة (2) وبذلك فقد نجح فى تصديع تلك العقيدة واختفى الحماس الذى كان لها فى أوائل العهد الموحدى ، ودب الشك فى الإيمان بها.

انتقل هذا الأثر إلى مفكرين أندلسيين مشهورين من أمثال (ابن العريف الصوفى) الذى أفتى فى رسالة له ردا على تساؤل عن المهدى "وانتظار مهدى يصلح به لا يعتقده حصيف ،

(1) المراكشي، المعجب،ص292،291.

(2) ابن خلدون، العبر،6/253،وأنظرابن الخطيب ، الإحاطة، 1/420،419; محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص370-372; محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، مينا للنشر، ط1 ،1992م،3/177 .

ولا يظن مثله بمسلم إلا ضعيف "[1] بل إن أثره امتد فى القرن الثامن الهجرى إلى المغرب حيث تبنى رأيه المؤرخ الشهير ابن خلدون ، وجمع الأحاديث الواردة بشأن المهدى ، وتعرض لها بالنقد ، وخرج من ذلك برفض هذه الفكرة من أساسها[2]وهكذا فقد نجح ابن حزم فى إثارة فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد من الأندلسيين ، تركت أثرا واضحا على الفكر الأندلسى من خلال تبنى مفكرين مشهورين لها، فضلا عن تبنى بعض حكام الدولة الموحدية لها وتطبيقها مما كان له أكبر الأثر فى تبنى الكثيرين من الرعية لها.

وإذا كان رأى ابن حزم فى عقيدة المهدى قد وجد صدى واسعا داخل المجتمع الأندلسي. فإنه قد جانب الصواب ، وذلك لورود نصوص صحيحة لم يطلع عليها ابن حزم تثبت حقيقة المهدى المنتظر، منها ما ورد فى سنن ابن ماجة التى لم تعرفها الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم ، حيث أخرج عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ)[3].

وفى عهد الموحدين وجدنا أول حكامهم محمد بن تومرت الهرغى يتلقب بالمهدى متأثرا فى ذلك بالشيعة فى ادعائهم عصمة المهدى ، وكانت بدايته مع فكرة المهدويةأنبدأ يذكر لأتباعه المهدى مجردا عن اسمه ، ويشير إلى اقتراب ظهوره، ولما كثر أتباعه جعل يشوقهم إليه

(1) أنظر: مفتاح السعادة ، مخطوط بالخزانة الحسينية بالرباط ، رقم1562 ، ورقة98، نقلا عن جمعة شيخة ، التصوف الأندلسى بين الدين والسياسة خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادي، دراسات أندلسية، رمضان1419هـ/1999م، عدد2،1ص74.

(2) أنظر: المقدمة،ص218-231 .

(3) أنظر: كتاب الجهاد من سنن ابن ماجة، باب الرايات والألوية.

، ويجمع الأحاديث الواردة بشأنه تمهيدا للإفصاح عن فكرته الرئيسية وهى أنه المهدى المنتظر والإمام المعصوم ومن ثم أعلن على الملأ سنة 515هـ/1121م: (وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة .... ولا يكون الإمام إلا معصوما) . ثم إن ابن تومرت يتوعد من لا يؤمن بفكرته عن العصمة والمهدوية بأنه كافر جاحد أو فاجر فاسق(1).

لقد وُجد من العلماء بالمغرب والأندلس من أيد فكرة ابن تومرت حول العصمة والمهدوية ، بل إن اثنين من حكام الموحدين بعده وهما عبدالمؤمن بن على وابنه يوسف عمدا إلى نشر المهدوية والعصمة المرتبطة بشخص المهدى فى سائر بقاع الدولة الموحدية ، ورغم معارضة بعض العلماء بالأندلس للمهدوية كأبى الحسن عبدالملك بن إياس القرطبى الذى ألف كتابا طعن فيه فى مبادىء الموحدين . فإن عبدالمؤمن بن على كان حريصا على مقاومة أى معارضة لمبادىء الدولة التى اصلها ابن تومرت ومنها المهدوية ، ومن ثم انتدب للرد علي ابن إياس القرطبى بعض الأعلام الذين عرفوا بقوة الحجة فى الجدل والمناظرة(2).

بل وجدنا من أعلام الظاهرية فى عهد الموحدين من كان يدعو لعصمة المهدى ابن تومرت وهو ابن مضاء النحوى قاضى القضاة فى عهد الموحدين ، ورغم تأصل هذه العقيدة بين العامة والخاصة والفقهاء فإن المنصور الموحدى أصاب هذه العقيدة فى مقتل عندما أعلن رفضه لها ، وكذا ابنه المأمون من بعده ، وابن المأمون الرشيد كل ذلك قضى على التأثير الشيعى فى فكرة المهدية ، ومن ثم وجدنا أهل السنة يرفعون أصواتهم بحقيقة المهدى المنتظر

---

(1) أنظر : كتاب أعز ما يطلب ، نشر جولد زيهر، الجزائر،1903م ، ص245،246 ، 254; صلاح السيد ، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى ، ص65،66 ; عبدالباقى السيد : الظاهرية والمالكية وأثرهما فى المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، دار الآفاق ، القاهرة ، 2014م ، ص111.

(2) عبدالمجيد النجار ، المهدى بن تومرت ،425،426،474 ; وانظر : عبدالباقى السيد : مرجع سابق ، ص114.

ومن هؤلاء ابن عربى الصوفى الذى أعلن فى عهد المنصور الموحدى رأيه علانية فى المهدى المنتظر فقال : " إعلم أيدنا الله أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطا وعدلا ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة رسول الله من ولد فاطمة يواطىء اسمه اسم رسول الله جده الحسين بن على بن أبى طالب يبايع بين الركن والمقام...، يقسم المال بالسوية ويعدل فى الرعية ، ويفصل فى القضية ... يفتح المدينة الرومية بالتكبير فى سبعين ألفا من المسلمين من ولد إسحاق .... ، يضع الجزية ... يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص أعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت إليه أئمتهم فيدخلون كرها تحت حكمه خوفا من سيفه وسطوته ورغبة فيما لديه ، يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم ، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهى ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله ، ينزل عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء بشرقى دمشق .. فيتنحى له الإمام من مقامه فيتقدم فيصلى بالناس يؤم الناس بسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويقبض الله المهدى إليه طاهرا مطهرا " (1) .

ومما سبق يمكننا أن نخلص بعدة حقائق :

أولها : أن ابن عربى التزم فى كلامه عن المهدى المنتظر ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من أحاديث ذكرها أصحاب السنن ، وإن كان اختلط عليه الأمر فى مسألة وضع الجزية عن أهل الكتاب فهذا ليس للمهدى حسب النصوص إنما لعيسى بن مريم (2).

---

(1) أنظر : الفتوحات المكية ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1420هـ/1999م، 6/51.

(2) أنظر : سيد سابق ، العقائد الإسلامية ، دار الفكر ، بيروت ، 1412هـ/1992م ، ص250-255.

ثانيها : أن ابن عربى يؤكد على ظاهريته عندما جعل أتباع الدين الخالص الذين يبقون مع المهدى هم أهل الاجتهاد ، أما المقلدة ومذاهبهم فلا مكان لهم .

ثالثها : أن تأكيد ابن عربى على الاجتهاد فيه ما فيه من تبكيت الشيعة الإمامية على قولهم بالعصمة والتقديس للأئمة .

رابعها : أن التأثير الصوفى على ابن عربى لم ينفصل عنه فى هذا الموضع عندما جعل أهل الكشف وأهل العرفان هم من يبايعون المهدى . فجمع فى هذا الموضع بين الظاهرية والصوفية إذ جعل أهل الاجتهاد والنص ، وأهل الكشف والعرفان من أتباع المهدى .

وقد عقب أحد الباحثين على كلام ابن عربى السابق بقوله " ومما يلفت النظر فى هذا النص أن الشيخ محيى الدين بن عربى سمى المهدى خليفة لا إماما بخلاف ما درج عليه الشيعة ، وقد أكد بعبارته المذكورة أن المهدى المنتظر هو ذلك الذى تنتظره الشيعة الإثنا عشرية مما يفهم أن ابن عربى إما أن يكون شيعيا إثنا عشريا ، وإما أن يكون ممن فضلوا الإثنا عشرية ، والخلاصة أن المتصوفة يقولون برجعة المهدى المنتظر سائرين تماما مع العقيدة الشيعية (1).

وهذا مجانب للصواب من وجوه :

الأول : أن الخليفة هو الإمام ولا فرق ، وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فذكره بلفظ الإمامة بقوله (الأئمة من قريش) أى الخلفاء ، وذكره بلفظ الخلافة فى قوله : (لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة) (2) .

---

(1) علام ، الدعوة الموحدية ، ص287.

(2) الحديث أخرجه أبو داود والترمذى والطبرانى ، وأصله عند البخارى ومسلم . وقد يتوهم البعض أن هذا الحديث يثبت حقيقة الشيعة الإثنى عشرية ، ولكن هذا الحديث يتحدث عن إثنى عشر خليفة يحكمون فى تاريخ الإسلام منهم أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وقد تحدث النبى عن هؤلاء الأربعة بقوله صلى الله عليه وسلم " عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين" فهؤلاء أربعة من الإثنى عشر ، والباقون عند العلماء منهم عمر بن عبدالعزيز . المهم أنه ليس فى الحديث أى حجة للشيعة الإثنى عشرية الذين لايؤمنون أصلاً بخلافة

الثانى : أن مسألة المهدى المنتظر ليست عقيدة شيعية فحسب بل هى مسألة سنية أصيلة وورد ذكرها فى أحاديث صحاح منها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ)(1) ، وقد كان ذكر المهدى المنتظر مشهورا بين الصحابة والتابعين وخرج أئمة السنة من المحدثين أحاديثه من أمثال أحمد بن حنبل والترمذى وأبوداود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وعبدالرزاق وغيرهم ، وقد حكم جماعة من العلماء على هذه الأحاديث بالتواتر(2).

الثالث : أن ابن عربى لم يقل بالرجعة هنا ، وإنما قال بما أخبر به النبى من أن المهدى سيظهر فى آخر الزمان يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ، ويجعلون أول أئمتهم على بن أبى طالب رضى الله عنه . أنظر : ابن حجر : فتح البارى ، 224/13 وما بعدها .

(1) أنظر : كتاب الجهاد من سنن ابن ماجة، باب الرايات والألوية.

(2) منهم الحافظ أبوالحسين الآيرى السجزى ، والقرطبى، والحافظ ابن حجر، والحافظ السخاوى، والشوكاني، الذي صنف كتاباً اسماه "التوضيح لبيان تواتر حديث المنتظر والدجال والمسيح "وصنف تلميذه السيد صديق خان القنوجى ملك بهبال بالهند كتابه "الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة" يوضح فيه تواتره أيضا . أنظر: عبدالله الصديق الغمارى، الحاوي فى فتاوى الغمارى، ص20،21; التويجرى ، الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدى المنتظر ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، ص26،27،147،160،161.

المبحث الرابع : مآتم الحسين "الحسينية"

كان من آثار حب أهل البيت أولا ثم التشيع ثانيا أن عرفت الاحتفالات بيوم عاشوراء وهو اليوم الذى استشهد فيه الإمام الحسين بن على رضى الله عنه وهو العاشر من المحرم ، وكان الصالحون يذبحون الذبائح ، ويعدون الطعام ، ويدعون الناس لتناوله احتفالا بهذه الليلة [1] ، وكان للمعلمين نصيب من الطعام أو جعل يجعل لهم أقره فقهاء المالكية وأجازوه [2] ، وقد حث فقهاء المالكية الناس على الإنفاق على أهليهم والتوسعة عليهم فى هذا اليوم ، ومنهم ابن القطان الفاسى المالكى صاحب النزعة الظاهرية الذى صنف رسالة بخصوص هذا الشأن أسماها (فضل عاشوراء وما ورد فى الإنفاق فيه على الأهل) [3].

ويرتبط بعاشوراء الاحتفال بذكرى استشهاد الإمام الحسين ، حيث كانت تقام المآتم ، وتقدم الأطعمة ، وتضاء الشموع ، وتوقد البخور ، وتنشد المراثى الحسنة التى كانت تسمى بالحسينية ، ومنها قصيدة لأبى بحر صفوان بن إدريس التجيبى (ت598هـ/1201م) ، وأخرى لناهض بن محمد الوادى آشى (ت615هـ/1218م) [4] ، وقد صنفت العديد من الكتب فى رثائه منها (تقريظ سيدنا الحسين ووصف مآثره ونظم جواهر مفاخره) للفقيه

---

(1) سعيد أبوزيد ، الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، ص179 ; وانظر : عصمت دندش ، الأندلس فى نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين ، رسالة دكتوراة ، آداب عين شمس ، 1406هـ/1986م، ص267.

(2) الونشريسى ، المعيار ، 254/8.

(3) محمود مكى ، مقدمة نظم الجمان لابن القطان ، ص17.

(4) فوزى سعد ، الشعر الأندلسى ، ص242-244. ومن قول صفوان التجيبى فى قصيدته :

قفوا ساعدونا بالدموع فإنها لتصفر فى حق الحسين ويعظم

ومهما سمعتم فى الحسين مراثيا تعبر عن محض الأسى وتترحم

فمدوا أكفا مسعدين بدعوة وصلوا على جد الحسين وسلموا . أنظر : نفسه ، ص243،244.

الأديب الشاعر عبدالله بن محمد بن قاسم الرعينى (ت 571هـ/1175م) (1) ، وكتاب (معادن اللجين فى مراثى الحسين) ، (در السمط فى خبر السبط " فى أخبار الحسين بن على") لابن الآبار المالكى (2).

وفى إمارة غرناطة نجد ابن الخطيب فى عصر بنى نصر يصف لنا هذه المآتم فى إشارة ذات أهمية كبرى عن عادات أهل الأندلس عامة وأهل شرق الأندلس خاصة في ذكرى استشهاد الإمام الحُسينمن التمثيل بإقامة الجنائزوإنشاد المراثي ، وذكر أن هذه المراثي كانت تسمى الحُسينية وأن المحافظة عليها بقيت إلى أيام ابن الخطيب الغرناطي في عهد مملكة غرناطة (635-897هـ/ 1238-1492م) ومما ذكره "ولم يزل الحزن متصلاً على الحسين والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ويختلفون لذلك ليلة ويوم قتل فيه بعد الأمان من نكير دول قتلته ولاسيما بشرق الأندلس.فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من أنهم بالشرق (شرق الأندلس) يقيمون هم الجنازة في شكل من الثياب يسجوه خلف سُترة في بعض البيت ويحتفل بالأطعمة والأضواء والشموع وتجلب القراء، يوقد البخور ويتغنى بالمراثي الحُسينية ....والحُسينية التي يستعملها اليوم المُسمعون، فيلوون العمائم الملونة ويبدلون الأثواب في الرفض كأنهم يشقون الأعلى عن الأسفل، بقية من هذا لم تنقطع بعد وأن ضعفت، مهما قيل: الحُسينية أو الصفة، لم يُدّرَ اليوم أصلها.(3)"

(1) ابن دحية ، المطرب فى أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، حامد عبدالمجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1954م، ص240.

(2) ابن الآبار : إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق، ط1، 1380هـ/1961م، ص20،22.

3أنظر : أعمال الأعلام : تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، 1/74-75.

المبحث الخامس : تأثر الثقافة والأدب بالفكر الشيعى .

وكان من آثار الفرق الإسلاميةأن تأثرت الثقافة والأدب بالفكر الشيعى أو بالطابع الشيعى فى بعض جوانبها . حيث انتقلت رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس بما كانت تحويه من فكر شيعى باطنى . فضلاً عن انتقالدواوين ومصنفات أشهر الشعراء والكُتاب والأدباء الشيعة في بغداد إلى الأندلس وبروز تأثيرهم ومنهم أبو بكر الخوارزمي (ت 385هـ/995م) وبديع الزمان الهمذاني (398هـ/1007م) والشريف الرضي (ت 405هـ/1014م) ومهيار الديلمي (ت 428هـ/1036م). كذلك ازدادت صلات الأندلس بمصر وشمال إفريقيا وقد تبادلت بعض الرسائل بين علي بن مجاهد العامري صاحب دانيه والخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة (452هـ/1060م) كما هاجر كثير من الأدباء من المغرب ومصر إلى الأندلس وقد ذكرهم ابن بسام في موسوعته الأدبية الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحت باب الغرباء.

ومن مظاهر التأثير الشيعي في هذه الفترة أن مدرسة محمد بن مسره الاعتزالية والتى شابها بعض التشيع قد استمرت ممثلة في طائفة من المفكرين كان من أبرزهم إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي عاش في المرية وكان أنصاره يعدونه إماماً يؤدون إليه الزكاة .كذلك تشيع كثير من عرب وبربر الأندلس والتسمية بأسماء أهل البيت وظهور عقيدة المهدي المنتظر كأمل في رفع الظلم والعسف عن المسلمين عامة والشيعة خاصة، فضلاً عن هذا انتشار بعض أفكار ومعتقدات الشيعة في هذه الفترة مثل الرجعة، والجفر والتناسخ[1].

وكان ابن دراج القسطلي (ت 421هـ/ 1030م (من أفضل الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين، ولم يبق من شعره الشيعي إلا قصيدة هاشمية مدح بها علي بن حمود واحتفظ لنا ابن بسام[2]بأكثرها، مفضلاً إياها على هاشميات كُثيرّ عزة والكُميت بن زيد والسيد

1مكي : التشيع ، ص131-132.

2أنظر : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت 1399هـ/1979م ، القسم الأول 1، ص70-73.

الحميري ودعبل، وفي هذه القصيدة يحتج ابن دراج لإمامة الحموديين ويقول أنها ثابتة بنص القرآن وبدليل العقل، وبحكم حقهم في ميراث النبي:

فأنـــتم هُداة حيـاة ومـوت وأنتم أئمة فعـــــل وقيل

وسادات من حل جنات عدن جميع شبابهم والـــــكهول

وأنتم خلائـــف دنيا ودين بحكم الكتاب وحكم العقول

ويعتبر ابن دراج أول من ذكر مناقب أهل البيت في أسلوب حزين مؤثر، وكان نواة للقصائد الأندلسية التي تناولت مراثي أهل البيت، والحقيقة أن هذه القصيدة تعد من خير ما أنتجه الأدب الشيعي، وقد بلغت في وقتها من الانتشار حداً بعيداً واهتم بها رواة الشعر وخصوها بالدراسة والحفظ.([1])

وأمتاز الأدب الأندلسيبأن بعض أدبائه أوقفوا من أنفسهم شعراً لكربلاء كما فعل الشاعر محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقى الشقوري (ت 540هـ/1146م) حيث قال :

أتنتهـــب الأيـــام فلـــذة أحـــمد وأفـــــلاذمنـــعاداهمتتودد

أيضحى ويظـــمى أحمد وبنـــــاته وبنتزيادوردهالايصـــــــرد

ومـــا الدين إلا دين جدهم الـــذي بهأصدروافيالعالمينوأوردوا

عرج على الطف أن فاتتك مـــكرمة وأذرالدموعبهاسحاًوهتاناً

وأبك الحســـين ومـــن وافى منيته فيكربلاءمضوامثنيووحدانا

يا ليت شعري أني جريح الطف دونهم أهين نفساًتفيدالعزمـــن هانا

1ديوان ابن دراج، تحقيق محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، دمشق، طبعة ثانية، 1389هـ ، ص68 ; وانظر : ابن الأبار: تكملة ، ترجمة 1695; مكي : التشيع ، ص138-139.

وهذه القصيدة الحُسينية للشاعر صفوان بن إدريس التجيبي (ت 598هـ) ([1]) الذي اختص بتأبين وبكاء أهل البيت ورثاء الحُسين توضح تأثر الأدب الأندلسى بالطابع الشيعى فى بعض جوانبه

سلام كأزهار الـــربى يتنســـــم ... على منزل منه الهدى يتعـــلمُ
على مشهد لو كنـــت حاضر أهله ... لعاينت أعضاء النبي تقـــسمُ
على كربلاء لا أخلف الغيثُ كربلا ... وإلا فإن الدمع أندى وأكـــرمُ
مصارع ضجت يثـــــرب لمصابها ... وناح عليهن الحطيم وزمـــزمُ
ومكة والأستار والـــركن والصفا ... وموقف حج والمقام المعظـــمُ
لو أن رســـول الله يحيى بعيدهم ... رأى ابن زياد أمه كيف تعقـــمُ
وأقبلت الزهـــــراء قدس تربها ... تنادي أباها والمدامع تسجـــمُ
تقول: أبي هـــم غادروا ابني نهبة ... كما صاغه قيس وما مج أرقـــمُ
سقوا حسناً السُـــــم كأساً رديةَ ... ولم يقرعوا سناً ولم يتندمـــــوا
وهم قطعوا رأس الحُسين بكربلا ... كأنهم قد أحسنوا حين أجرموا
فخذ منهم ثأري وســكن جوانحا ... وأجفان عين تستطير وتســجمُ
أبي وانتصر للسبـط واذكر مصابه ... وغلته والنهر ريان مفـــــعمُ
فيا أيها المغـــــرور والله غاضبُ ... لبنت رسول الله أيـــن تُيمـــم
ألا طرب يُقلى ألا حزن يصـــطفى ... إلا أدمع تجري ألا قلب يُضـــرمُ
قفوا ساعدونا بالدمـــــــوع فأنها ... لتصغر في حق الحُسين وتعـــظمُ
ومهما سَمّعتهـــم في الحُسين مراثيا ... تعبر عن محض الأسى وتترجـــمُ
فمدوا أكفاً مسعدين بدعوة ... وصلوا على جد الحُسين وسلموا

1ابن الخطيب : أعمال الأعلام، 1/ 74-75.

ومن أبرز من نظم القصائد الحسينية ابن الأبار الذى تأثر بالفكر الشيعى حيث كان يشاهد العزاء الحسيني في مسقط رأسه بشرق الأندلس، وقد سمع من أساتذته مراثي الإمام الحسين . إذكان أحد أساتذته المسمّى أبو الربيع سليمان الكلاعي، على علاقة خاصّة وحميمة بالشاعر صفوان بن إدريس، وقد تعرّف ابن الأبّار على هذا النوع من الأدب، المعروفبأدب البكاء، على يد هذا الشاعر; ومن ثم فلا غرابة في اهتمام ابن الأبّار بمصائب آل بيت الرسول ، وبالخصوص فاجعة كربلاء التي أولاها عنايةً خاصّة; فى كتاباته وآثاره .

ومن بين آثاره كتابَين، يُقدّمان صورةً واضحة عن ميوله الشيعيّة; وهما دُرر السمط في خبر السبط، والآخر معدن اللّجين في مراثي الحسين [1] ، وهو كتاب لم يصل إلينا.

الجدير بالذكر أن ميول ابن الأبارالتى تحدثنا عنها آنفا دفعت البعض إلى نسبته للتشيع ، ومن هؤلاء الحافظ الذهبي (ت748هـ) الذيقال : " وقد رأيت لأبي عبد الله الأبار جزءً سماه " درر السمط في خبر السبط عليه السلام " يعني الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر ، لأنه يصفعلياً رضي الله عنه بالوصي ، وينال من معاوية وآله " [2].

وقد ذكر المقري نصوصاً من كتاب ابن الآبار : "درر السمط " ،وعقب عليها بقوله : "انتهى ما سنح لي ذكره من " دررالسمط " وهو كتاب غاية في بابه، ولم أورد منه غير ما ذكرته، لأن في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع، والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه " [3].

ورغم أنّ كتاب ابن الأبار دُرر السمط يعظّم جلالة أهل البيت ويذمّ بني أميّة; لكنّ هذا وحده لا يُثبت تشيّعه; لأنّ تشيّع ابن الأبّار يعني الحبّ والولاء لأهل البيت لا الاعتقاد بالأسس الفكريّة للشيعة الإمامية; ولهذا نلاحظ أنّ ابن الأبّار رغم أنه يقول بأن عليّاً كان وصي رسول الله ، وأنّه سيد الأوصياء، لكنّه لا يعتقد بما تعتقد به الشيعة من الوصايه بل

1عنان : تراجم إسلامية ، ص352.

2أنظر : سير أعلام النبلاء ، 23/ 338 .

3أنظر : نفح الطيب ، 4/ 505.

يقول: إنّه آخر خليفةٍ للمسلمين، وأن معاوية أول ملكٍ بعد ظهور الإسلام، كما يرى أنّهما معاً عليّ ومعاوية في الجنّة.

ويتحدّث ابن الأبار في أحد قصائده الشعرية عن أهل السنّة بعيداً عن الرفض وهو التشيّع الإثنا عشري والنّصب والبغض ، ويكتب أيضاً في رسالته إلى أبي المطرّف: (كلا، بل دانت (الأندلس) للسنّة، وكانت من البدع في أحصن جُنّة..) كنايةً عن بدع الشيعة الإثني عشريّة والفِرَق الأخرى ،ومثلما كان ابن الأبّار يبجّل أهل البيت . كان أيضاً يكنّ الاحترام للخليفة الأول، وكان يعظّم الخليفة الثاني بالخصوص، ويعتقد أنّ باب الفتنة قد فُتح بعد وفاة عمر، ولو كان حيّاً لما وقعت تلك المصائب والفتن الكبرى، سيّما فتنة يوم الدار أي يوم مقتل عثمان وفاجعة كربلاء.

ويذكر ابن الأبار بعض فضائل علي مثل فضيلة أوّل مؤمن من الذكور، والتي لم يستطع غيره من الخلفاء الوصول إليها، وقد فهم من حديث المنزلة واستنبط شيئاً يخالف تماماً ما استنبطه الشيعة الإمامية من الحديث نفسه، وقد ذكر ذلك في كتابه، فقد صرّح ابن الأبّار قائلاً: لولا هذه العبارة (لا نبيّ بعدي) في حديث المنزلة لصار اتّباع عليّ واجباً بعد رحلة الرسول فالاستثناء الذي جاء في ذيل الحديث (إلا أنه لا نبي بعدي..) منع من وجوب اتّباع علي . في حين أن الشيعة رغم اعترافهم بخاتميّة الرسالة، لم يمنعهم ذلك من اتّباع علي بن أبي طالب ،ويذكر ابن الأبار أبا طالب استطراداً، ويقول ما قالته السنّة فيه من أنّه رحَلَ عن الدنيا كافراً فى حين أن الشيعة تعده مؤمنا .

قلت : ومن جملة ما تقدم من شواهد فلا يمكننا أبدا أن نحكم على ابن الأبار بالتشيع ، وأقصى ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شيعى الهوى ليس إلا من خلال حبه لآل البيت ومدحه لهم بطريقة يظهر فيها الإسراف بعض الشىء .

ويعتبر أبو البقاء الرندى (ت 684هـ/1285م) من الشعراء البارزين الذين خصوا الحسين بن على وكربلاء بالشعر حيث قال :

أبيت فلا يساعدني عزاء إذاذكرا لحسينوكربلاء

فخل الوجد يفعل ما يشاء لمثلاليوميدخرالبكاء

ويتضح تأثر الثقافة والأدب بالفكر الشيعى من خلال كتاب العقد الفريد لابن عبدربه والذى يسفر عن بعض ظواهر قد تمثل طابعاً شيعيا باهتاً ، أو ميلاً بعض الشيء لأهل البيت ومنها :

أولا : المبالغة بعض الشيء عند ذكره على بن أبى طالب وأبنائه ، ومن ذلك ذكره علياً بن أبى طالب فى مواضع عديدة بقوله : " عليه السلام" (1) ، وتخصيصه بذلك دون غيره من الصحابة ، وهو نفس ما تذهب إليه الشيعة .

ثانيا : ذكره لمرويات ظاهرها فيه تشويه لصورةبعض أصحاب النبى محمد صلى الله عليه وسلم حيثذكر أن حسان بن ثابت رضي الله عنه بكى حين سمع قينة تغني لأنها شوقته لحياته الجاهليةفأورد عن الأصمعي أنه قال: شهد حسان بن ثابت مأدبة لرجل من الأنصار وقد كف بصره ومعه ابنه عبد الرحمن فكلما قدم شيء من الطعام قال حسان لابنه عبد الرحمن : أطعام يد أم طعام يدين؟ فيقول له طعام يد حتى قدم الشواء فقال له هذا طعام يدين فقبض الشيخ يده فلما رُفع الطعام اندفعت قينة تغني بهم بشعر حسان :

انظر خليلي بباب جلّق هل *** تبصر دون البلقاء من أحد

جمال شعثاء إذا هبطن من الـ *** محبس بين الكثبان فالسند

قال: فجعل حسان يبكي وجعل عبد الرحمن يومئ إلى القينة أن تردد! قال الأصمعي: فلا أدري ما الذي أعجب عبد الرحمن من بكاء أبيه (2).

1أنظر : العقد الفريد ، 2/238،129،196 ; 3/102.

2أنظر : العقد الفريد ، 7/7.

ونقل عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر . رضي الله عنهما . أنه شرب الخمر فحُد: حيث قال: " ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحده عمرو بن العاص سرّا فلما قدم على عمر جلده حدا آخر علانية " (1).

وذكر عن معاوية بن أبى سفيان . رضي الله عنه . أنه كان يأمر أصحابه بلعن أمير المؤمنين علي . رضي الله عنه . على المنابر وفي المجتمعات وفي المجالس.

ثالثا : خوضه فى الفتنة التى وقعت بين الصحابة ، ومذهب أهل السنة الإمساك عن ذلك.

وتجدر الإشارة أن الشواهد السابقة لا ترقى لوصف ابن عبد ربه بالتشيع . بل كما سبق وأن ذكرت لا يعدو الأمر عن ميل لأهل البيت مع بعض المبالغة والتجاوز إن صح التعبير، ولعل ابن عبد ربه فطن إلى وقوف بعض الأندلسيين على ذلك ، وهو فى بيئة أموية تستأسد لموجهة أى خطر يهدد ملكهم ، ومن ثم رأيناه وبعمد - فيما نرى- يصيغ أرجوزة يتقرب بها إلى بنى أمية ويخرج منها علياً بن أبى طالب من زمرة الخلفاء (2) كما سبق وأن ذكرنا بالفصل الأول من هذه الدراسة .

1نفسه ، 8/62.

2أنظر : المقرى : نفح الطيب ، 2/512/511 ; عبدالباقى السيد : تاريخ أهل الظاهر ، ص 156.

المبحث السادس : الإنتاج الفكرى والثقافى لأتباع الفرق الإسلامية

حرص أتباع الفرق الإسلامية على نشر أفكارهم من خلال التأليف والتصنيف ، مثلما كان من أمرأحد رجال الخوارج الأباضية أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني (ت 570هـ) الذى انتقل من سدراته إلى قرطبة ، وتجول في ربوعها وارتاد مساجدها واتصلبشيوخها ، وقد ذكرت كتبالسير أنه ارتحل إلى الأندلس وهو شاب ، وسكن قرطبة وفيها حصل علوم اللسان والحديثوالفلك وغيرها.

ومن آثاره كتاب في أصول الفقه " العدل والإنصاف " وكتاب فيأصول الدين " الدليل والبرهان " وقام بترتيب المسند (مسند الربيع) ، وقد كان مشوشاًوضم إليه بعض الروايات ومراسيل جابر بن زيد ، ووضع كتاباً في الفلسفة والهندسةوالمنطق والحساب [1] ، وله ديوان شعر[2] ، ومن أشهر قصائده فيها القصيدة الحجازيةيصف فيها رحلته إلى الحجاز بكثير من التفاصيل مع تضمينها مواعظ وحكماً ،وهي مرثية طويلة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل [3] ، وله رحلةإلى بلاد السودان ذكر فيها غرائب [4] وهى رحلة تجارية وليست علمية.

ومن آثار الورجلاني كتابه العظيم في تفسير القرآن يقول الشيخالبرادي وله في تفسير القرآن كتاب عجيب ، رأيت منه في بلاد آريغ سفراً كبيراً ، ولمأر ولا رأيت سفراً أضخم منه ولا أكبر ، وحرزت أنه فسر القرآن في ثمانية أسفار مثله، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور في لغة وإعراب أو حكم مبين ، أو قراءةظاهرة ، أو شاذ ، أن ناسخ أو منسوخ أو في

1السالمي : حاشية الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، مكتبة الأزهار البارونية ، القاهرة ، 1326هـ/1908م ،1/3.

2أنظر : طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث – قسنطينة – الجزائر ، 1974م، 2 /351.

3أنظر : طبقات الدرجيني ، 4/461.

4الوارجلاني : الدليلوالبرهان ، تحقيقسالم بن حمد الحارثي ، بدون دار نشر ، ط2 ، 2006م، 3/209.

جميع العلوم ، فإذا ذكر آية ، فأول شيء يذكرإعرابها ويستقصيه ، ثم اللغة فيستقصي جميع تصاريف الفعل من الكلمة ثم الصحيح فيحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسوق الرواية من كتاب الربيع المعروف إلى أنيقول: ولقد ذاكرت أمره مع بعض الطلبة المميزين هناك فقال لي : لو وجدت هذا التأليفكاملاً لاسترخصته بخمسين ديناراً ولكن من ضعف بخت أهل هذا المذهب ، وقلة اكتراثهمبشيء غفلوا عنه حتى أنه لم يعلم به أكثرهم ، ولم توجد عندهم نسخه واحدة (1) .

وبرز لنا من منظرى الأشعرية فى الأندلس أبو بكر محمد بن سابق الصقلى (ت 493هـ) الذى نجح فى تكوين مدرسة من مريديه وتلاميذه (2) ، واستطاع أن يدافع عن مذهبه وفكره فى ظل دولة المرابطين ، ومن ثم وجدنا له بعض المصنفات ومنها :

1- جزء فى معنى كلام الله تعالى والرد على المخالفين ، وسبب تأليف هذا الكتاب أن بعضهم سأله أن يصنف كتاباً فى مسألة معنى كلام الله فأجاب السائل ، وتعقب فى كتابه رجلاً مصرياً يدعى الشيرازى ، وشدد عليه النكير حتى ذهب إلى حد لعنه ولعن من يقول بمقالته (3).

2- كتاب فى الحدود الكلامية والفقهية على مذهب أهل السنة الأشعرية (4).

1نقلا عن عمار الطالبى : آراء الخوارج الكلامية ، 2/ 293.

2عنه أنظر : سمير قدورى : من شيوخ الأشعرية بالأندلس ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، ص91-100.

3نفسه ، ص95.

4 نفس المرجع والمكان والصفحة .